العدد ٢٠٠٣/٧

الأحد ١٦ شباط

أحد الفريسي والعشار

تذكار الشهيد بمفيلس ورفقته

اللحن الأول

إنجيل السَحَر الأول

الرسالة

(٢ تيموثاوس ٣: ١٠–١٥)

يا ولدي تيموثاوسَ إنَّك قد استقريت تعليمي وسيرتي وقصدي وإيماني وأناتي ومحبَّتي وصبري* واضطهاداتي وآلامي وما أصابني في إنطاكية وإيقونية ولِسترة. وأيَّةَ اضطهاداتٍ احتملتُ وقد أنقذني الربُّ من جميعها* وجميعُ الذينَ يُريدون أن يَعيشوا بالتقوى في المسيحِ يسوعَ يُضطَهدون* أمَّا الأشرارُ والمغُوونَ من الناسِ فيزدادون شرًّا مُضِلِّين ومُضَلِّين* فاستمر أنتَ على ما تعلَّمته وأيقنتَ به عالمًا ممَّن تعلَّمتَ* وأنَّك منذُ الطفوليَّة تعرفُ الكتُبَ المقدَّسةَ القادِرةَ أن تُصيِّركَ حكيمًا للخلاصِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوع.

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٠–١٤)

قال الربُّ هذا المَثَل: إنسانانِ صعدا إلى الهيكلِ ليُصلِّيا أحدُهما فرِّيسيٌّ والآخرُ عشَّارٌ* فكان الفريسيُّ واقفًا يصلّي في نفسهِ هكذا: أللهمَّ إنّي

انسحاق الروح

«كونوا جميعًا خاضعين بعضكم لبعض، وتسربلوا بالتواضع لأن الله يقاوم المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة. فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه» (١ بط ٥: ٥ و ٦).

يشدد آباء الكنيسة القديسون أن انسحاق الروح أو ما يُعرف بالتواضع هو أول الفضائل المسيحية، ومن يقتني التواضع يسهل عليه اقتناء الفضائل الأخرى. لذا فإن المغبوط اوغسطينوس يقول: «إن اتضاع النفس هو المضمون الكامل للديانة المسيحية». والقديس اسحق السرياني يقول: «ليس كل هادىء متضعًا، ولكن كل متضع هادىءٌ».

في المقابل يُعلِّم هؤلاء الآباء أن الكبرياء هي أول الأهواء وأشدّها قبحًا وهي سبب سقوط الملائكة من السماء فصاروا شياطين، وهي سبب سقوط الإنسان وابتعاده عن نعمة الله. كتب القديس اسحق السرياني: «الكرامة والكبرياء كانتا في البدء علّة سقوط آدم بواسطة الحية، ولا زالت الحية إلى الآن تستعمل وسيلتها وهي مختبئة في القلوب لتهلك جنس المسيحيين ولتطرح النفس في الجحيم. لذلك اتخذ المسيح صورة عبد، وغلب الشيطان بالتواضع ليعلّمنا طريق النصر».

إذًا، بالكبرياء سقط الإنسان، لأن آدم أراد أن يكون إلهًا مستقلاً عن الله فتكبّر. وبالتواضع عاد الإنسان إلى حضن الله بواسطة الرب يسوع، آدم الجديد، الذي وضع ذاته في كل شيء، واخضع كل شيء فيه لله. تواضع، «لذلك رفعه الله أيضًا واعطاه اسمًا فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومَنْ على الأرض ومَنْ تحت الأرض» (في ٢: ٩ و ١٠). لذا فإن التواضع هو الفضيلة المسيحية الأولى.

إذا كان الفصح، ذكرى قيامة الرب، هو عيد عودتنا إلى الفردوس المفقود، عيد ولادتنا الجديدة في السماء، فإن الكنيسة رتبت أن نقرأ في بداية رحلة الصوم الكبير، رحلة الحج نحو القيامة، مَثَلَ الفريسي والعشار (لو ١٨: ١٠–١٤)، لكي نعي منذ اللحظة الأولى التي نتهيأ فيها للدخول في الصوم أن التواضع هو السبيل الوحيد لنعود إلى الملكوت. التواضع يرسلك إلى منزلك مبرَّرًا وقديسًا.

من خلال مَثَلَ الفريسي والعشار نتعرف على صفات المتكبر والمتواضع. المتكبر هو الذي ينظر إلى الناس من فوق، ويظن نفسه من طينة أفضل تختلف عن طينتهم، وأنه أكثر صلاحًا وأوفر تقوىً وعلمًا وشجاعة من سائر البشر. المتكبر يظن أن كل الناس على خطأ وهو وحده لا يُخطىء، وينصِّب نفسه مكان الله، ديَّانًا للناس. المتكبر يُحب أن يُخضع الآخرين لسلطانه. المتكبر يعتبر أن كل ما حققه من فضائل هو بقوته الشخصية، ناسيًا أن «كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظِلُّ دوران» (يع ١ :١٧)، وأنه «إن لم يبنِ الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون» (مز ١:١٢٧)، ومهما عملتم «فقولوا إننا عبيدٌ بطّالون» (لو ١٠:١٧). التكبر مرض خبيث يدخل في كل تفاصيل حياتنا فيتحوّل الخير فينا إلى شر. الحكيم يتكبر بحكمته، والغني بثروته، والخطيب بخطاباته، والذكي بشطارته، والوسيم بجماله، والكاهن برعايته، والمرتل بصوته الخ ... الخطر الأكبر هو في سقوط بعض الروحانيين في التكبر، فيظنون أنفسهم أكثر روحانية من غيرهم ويقعون في الدينونة وتصنيف البشر. وهؤلاء سقوطهم أعظم وأوجع من سقوط الإنسان العادي. تأملوا الفريسي المتديّن في إنجيل هذا الأحد، ألا تعتقدون أنه وضع نفسه على سكة الجحيم؟

المتواضع هو عكس كل ما ذُكر أعلاه عن المتكبر. بداية التواضع هي معرفة النفس وتمييز الهفوات والخطايا المعششة في القلب، والإعتراف بأن الإنسان يخطىء وليس أحد كاملاً. التواضع هو تقييم الذات على أساس المعرفة الحقيقية لها: يعترف المتواضع أننا بشر مخلوقون قد شوّهنا صورة الله فينا، وأننا نحجب هذه الصورة وراء التكبر المعشش فينا، فيشرِّع أبواب ذاته لنعمة المسيح الذي مات وقام لكي يعيد لنا الصورة التي شوّهها التكبر. المتواضع لا يخجل من الاعتذار إن أخطأ، بل يسعى أن يكون في سلام مع كل البشر.

المتواضع يعمل بكل ما أعطاه الله من مواهب. لا ينكر موهبته ولا يخبئها، ولكنه لا يعمل «عجقة وهيصة». كل شيء معه يؤدي إلى الله: « لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجّدوا اباكم الذي في السموات» (متى ٥: ١٦). المتواضع لا يتوانى ولا يُعرض عن خدمة الآخرين بما أوتي من نِعَم إلهية. فالتواضع لا يعني إلغاء لما في الإنسان من نِعَمٍ ربانية، وإلا فإنه يغالي في إنكار نفسه للدرجة التي ينكر فيها عمل الله. يخدم ويشكر الرب أنه فتح له مجالاً للقداسة.

التواضع هو انسحاق القلب وليس تذليل المظهر الخارجي. لذا فإن القديس اسحق السرياني يقول: «إن حقّرت نفسك لكي يكرّمك الناس فالرب يفضحك». التواضع هو بداية الطريق إلى التوبة، لأن بداية التواضع هي في الاقرار بالخطايا والذنوب. مَنْ لا يعترف بوجود خطأ عنده فكيف يصلحه؟

مهما تكلمنا عن التواضع يبقى الأمر نظريًا. فالتواضع حياة عميقة بين النفس والله، لا يمكن درسها بل عيشها. وكما ينمو الإنسان في الجسد، كذلك ينمو في الروح. وكلما نما الإنسان المتواضع في النعمة ازداد انسحاقًا وتواضعًا. لقد علّمنا الرب على لسان الرسول بولس أن «ثمر الروح محبة، فرحٌ، سلامٌ، طول أناة، لطفٌ، صلاحٌ، إيمانٌ، وداعةٌ، أشكُرُكَ لأنّي لستُ كسائرِ الناسِ الخطفةِ الظالمين الفاسقين ولا مثلَ هذا العشَّار* فإنّي أصوم في الأسبوع مرَّتيْن وأُعَشِّرُ كُلَّ ما هو لي* أمَّا العشَّارُ فوقفَ عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أنْ يرفعَ عينَيْهِ إلى السماءِ بل كان يقرَعُ صدرَهُ قائلاً أللَّهُمَّ ارحمني أنا الخاطئ* أقول لكم إنَّ هذا نزَلَ إلى بيتِهِ مُبرَّرًا دون ذاك. لأنَّ كلَّ مَن رفَعَ نَفْسَهُ اتَّضع ومَنْ وَضَعَ نفسَهُ ارتفعَ.

تأمل

ان أردت أن تظهر بفضيلة عظيمة فلا تفاخر بها كثيرًا لتظهر أعظم من قبل. لا تفكر في انك فعلت شيئًا، فتكون بهذا قد تمّمت الواجب عليك. اننا نصبح أبرارًا إذ نحسب أنفسنا في عداد الخطأة كما حدث ذلك حقيقة مع العشار، وقد يكون الاجر أعظم، إذ ونحن أبرار نحسب ذواتنا في عداد الخطيئة.

إن التواضع يجعل الخاطئ بارًا. والأفضل أن يقال ان هذا التواضع هو الإدراك الحقيقي. تأمل ما يفعل الاعتراف الحقيقي مع الخاطئ، فكم بالحري يكون عظيمًا عمل التواضع في الأبرار. لذلك لا تبذل أتعابك سدى، ولا تدع عَرَقَ جبينك يذهب بلا فائدة، فتُحرَم الجائزة بعد خوضك ألوفًا من المعارك. ان السيد

أدرى بخدماتك، فهو لا يبخسك حقك إن قدّمتَ كأس ماء بارد لعطشان، إن أعطيتَ فلسًا واحدًا، أو تنهدتَ مرة واحدة، فقد يقبل منك هذا مع الشكر ويجزيك عنها جزاء عظيمًا.

ألا تعلم ان المادح نفسه لا يمدحه الله؟ إذًا يجب أن نتجنب ذكر حسناتنا لأن ذكرها يجعلنا مكروهين ومذنبين أمام الله. فمتى كثرت الأعمال الصالحة وجب أن يكون الكلام عنها أقل. وبهذه الواسطة نقدر أن نحصل على المجد العظيم من الله والناس. واننا لا نحصل على المجد من الله فقط بل على شيء أفضل، على الجائزة. وعلى المواهب العظيمة. لا تطلب الجائزة فتحصل عليها. اعترف انك تخلص بواسطة النعمة فيصبح الله مدينًا لك عن أعمالك الصالحة وعن اعترافك بالجميل أيضًا. إن فعلنا الخير وحده يكن الله مدينًا لنا عنه فقط؛ لكن إذا لم نفكر بما فعلنا من أعمال الخير فقد يكون مدينًا لنا عن هذه العاطفة أيضًا أكثر من العمل نفسه. إذًا، هذه العاطفة الشريفة تعادل عمل الخير، ومن دونها لا قيمة حتى لأعمال البِر. هكذا يكون عطفنا أكثر على خَدَمِنا حينما نراهم يخدمون بإخلاص ظانين أنهم لم يفعلوا بعد ما يرضينا.

تعففٌ» (غلا ٥:٢٢-٢٣). وطالما الإنسان يحيا بالروح وينمو فيه تنمو النعمة وهكذا التواضع مع سائر الفضائل. وجميع هذه الفضائل هي حلقات مترابطة لا تنفصل: المتواضع مصلّي، والمصلّي محب، والمحب هادئ، والهادئ متواضع، والمتواضع صبور الخ ... ألا جعلنا الله مستحقين أن نصرخ مع العشار: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ» وأهّلنا لندخل ملكوته.

البابا لاون الكبير

تعيّد الكنيسة المقدّسة في الثامن عشر من شهر شباط للقدّيس لاون الأول بابا رومية، المدعو كبيرًا. أن تحتفل الكنيسة الشرقية بعيد أحد البابوات قد يبدو غريبًا للوهلة الأولى، خصوصًا أنّ الكنيسة الأرثوذكسية تعيش اليوم في حال انقطاع الشركة مع كنيسة الغرب. لكن الوضع لم يكن على هذا النحو في الألف الميلادي الأول. من هنا، فإن التقويم الكنسي في الأرثوذكسية يضم عددًا من القديسين الذين كانوا مطارنة على مدينة روما، نذكر منهم إلى جانب لاون الكبير البابا غريغوريوس الكبير المعروف بالمحاور (٥٩٠ – ٦٠٤)، تعيّد له الكنيسة في ١٣ آذار وتُنسب إليه خدمة قدّاس القدسات السابق تقديسها، والبابا الشهيد مرتينوس الأول (٦٤٩ – ٦٥٥) الذي نعيّد له في ١٣ نيسان وقد دافع إلى جانب القديس مكسيموس المعترف (٥٨٠ – ٦٦٢) ونعيّد له في ٢١ كانون الثاني، عن الإيمان القويم ومات في المنفى.

ولد لاون الكبير في أواخر القرن الرابع في توسكانا (وسط إيطاليا) لكنه انتقل باكرًا إلى روما حيث لفت أنظار المسؤولين الكنسيين إليه.

والأرجح أنه هو نفسه لاون الذي يذكره المغبوط أوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠) على أنه أحضر رسالة من روما إلى قرطاجة في العام ٤١٨. حوالي العام ٤٣٠ كان لاون يشغل منصب رئيس الشمامسة، أي مساعد أسقف روما المباشر. ونجده يحث القديس يوحنا كاسيان (٣٦٠ – ٤٣٢) على محاربة نسطوريوس، القائل بالفصل بين طبيعتي يسوع الإلهية والبشرية، ويقيم علاقاتٍ مع القديس كيرلس الإسكندري. وفيما كان موجودًا في بلاد الغال (فرنسا الحالية) في رحلة عمل، انتُخب خلفًا للبابا سيكستوس الثالث وتسلّم عصا الرعاية في السنة ٤٤٠ .

عمد لاون اثر انتخابه إلى إرسال عددٍ من التوجيهات إلى أساقفة إيطاليا. يدلّ هذا الحدث على الوعي الذي راح ينشأ في كنيسة الغرب شيئًا فشيئًا أن بابا روما يضطلع بمسؤولية حيال كل كنائس الشطر الغربي من الامبراطورية الرومانية. فضلاً عن ذلك، انصرف لاون إلى محاربة المانويين، أتباع بدعة الفارسي ماني الذي كان يقول بوجود إلهين في الكون، إله صالح وإله شرير. بيد أن مساهمة لاون الأبقى في تاريخ الكنيسة هي تلك المتعلّقة بالصراعات الخريستولوجية، أي المرتبطة بشخص المسيح، والتي قامت في الشرق في القرن الخامس إثر حكم المجمع المسكوني الثالث (أفسس ٤٣١) على بدعة نسطوريوس. وكان مجمع القسطنطينية المحلي (٤٤٨) قد حكم على المدعو أوطيخة الذي كان يقول بأن الطبيعة الإلهية في السيد ابتلعت البشرية كما يبتلع البحر نقطة خمر أو زيت، منكرًا بذلك حقيقة تجسّد الكلمة. وقد كتب أوطيخة إلى لاون

طالبًا منه التدخل لمصلحته. فكتب لاون رسالة طويلة إلى فلافيانوس بطريرك القسطنطينية يعرض فيها التعليم الذي تسلّمته كنيسة روما من الرسل مباشرةً، والذي ينص على أن في السيد طبيعتين كاملتين، إلهية وبشرية. وقد عُرفت هذه الرسالة بإسم «طوموس لاون»، أي سفر أو كتاب لاون. وقد قُرئ طومس لاون في المجمع المسكوني الرابع المنعقد في خلقيدونية سنة ٤٥١، إلى جانب رسالتي كيرلس الإسكندري ضد نسطوريوس، وتبنى آباء المجمع عبارات عديدة منه في اعتراف الإيمان الذي أصدروه في نهاية المجمع، معتبرين إياه معبّرًا عن إيمان الكنيسة الجامعة.

عاش القديس لاون حقبة تبدّلات كبيرة في الغرب المسيحي، إذ تقاطعت فترة ولايته مع احتلال البرابرة الآتين من الشمال الجزء الغربي من الأمبراطورية الرومانية ومدينة روما بالذات التي تعرضت للنهب. وقد اضطره هذا، في كثير من الأحيان، إلى القيام بدور سياسي يتجاوز حدود سلطته الكنسية. غير أن الاضطراب السياسي لم يثنِ لاون عن الدفاع بصلابة عن إيمان المجمع المسكوني الرابع. فنجده يكتب إلى الأمبراطور القسطنطيني لاون مستشهدًا بعدد من النصوص الآبائية ليبرهن أن المسيح في الحقيقة إله كامل وإنسان كامل وأن هذا أساس خلاص البشر.

توفي البابا لاون في العام ٤٦١ وترك عددًا كبيرًا من الرسائل معظمها يرتبط مباشرة بالخلافات الخريستولوجية التي عايشها. وتشكل هذه الرسائل مصدرًا من الطراز الأول يزوّدنا بمعلومات قيّمة عن تطوّر الصراع حول شخص المسيح قبل مجمع خلقيدونية وبعده. علاوة على ذلك، يحفظ لنا التقليد الكنسي مجموعتين من العظات العائدة إلى القديس لاون. تضم الأولى ٥٩ عظة، يرجح أن لاون ألقاها بين العامين ٤٤٠ و٤٤٥، بينما تضم الثانية عظات لاون حتى موته. يتميز أسلوب لاون بالعبارة الدقيقة ومعرفة التراث الكنسي معرفة عميقة، وتعكس كتاباته تأثرًا ملحوظًا بمؤلفات المغبوط أوغسطينوس الذي اصبح مرجعية لاهوتية في الغرب المسيحي ابتداءً من القرن الخامس.

إدانة الآخرين

يجب علينا أن نفرّق بين الأنواع المختلفة للإدانة. تبدأ الخطيئة عندما نبدأ بالإزدراء بشخص ما في قلبنا لخطأ قد إرتكبه. من الممكن أن ندين ببساطة تامة، دون إصدار حكم ضد الشخص الذي ندين. وإذا شعرنا، بنفس الوقت، بشفقة في قلبنا على الشخص المخطئ، وكنا راغبين، بإخلاص، بتحسين حياته ومصلين كي يسلك بشكل أفضل في المستقبل، فعندئذ لن توجد خطيئة في الإدانة إنما، على العكس، ستكون إدانته فعل محبة بمقدار ما هو ممكن في حال مثل هذه. إن خطيئة الإدانة هي في القلب أكثر منها على الشفتين. إن الحديث عن شيء معين قد يكون خطيئة أولاً حسب الشعور الذي تُقال به الكلمات. فالشعور يعطي الكلام صفته. إنما من الأفضل أن نحجم عن أي نوع من الإدانة بسبب الخوف من الصيرورة كثيري الانتقاد؛ وبكلمات أخرى، من الأفضل ألا نقترب كثيرًا من النار كي لا نحترق ونسود. علينا بذل أقصى ما بوسعنا كي نوجّه لومنا ونقدنا تجاه أنفسنا.

ثيوفانس الحبيس

وهكذا، إن شئت أن تكون أعمالك الصالحة عظيمة تَصَوّرها حقيرة حتى تكون عظيمة. ان قائد المئة قال ليسوع: لست مستحقًا أن تدخل تحت سقفي لكن قل كلمة فيبرأ غلامي! (متى ٨:٨) لذلك استحق النعمة وحصل عليها أكثر من جميع اليهود. وقال بولس: أنا الذي لست أهلاً أن أدعى رسولاً (١كور ٩:١٥) وبهذا صار بولس أول الرسل القديسين. وقد قال يوحنا المعمدان: لست أهلاً أن أحل سيور حذائه (لو١٦:٣) وبهذا أصبح صديق العريس، وتلك اليد التي لا تعد أهلاً لحل سيور حذائه استحقت أن توضع على هامة المسيح. وقال بطرس اخرج من سفينتي يا رب لأني رجل خاطئ (لو ٨:٥) ولذلك أصبح أساس الكنيسة. فلا شيء يسر الرب أكثر من أن يحسب الإنسان نفسه في عداد الخطأة؛ فهذا العمل هو عين التواضع. ان المتواضع والمنكسر القلب لا يتعجرف ولا يغضب ولا يحسد قريبه، وبالإجمال لا يعثر أبدًا. لا تقدر أن ترفع ذراعك المكسور إلى فوق مهما حاولت، كذلك النفس المنكسرة لا تنهض ولو مرّت أمامها مئات الشهوات.

القديس

يوحنا الذهبي الفم